

النقاد العرب بين إرضاء المنهج وإنصاف النص "دراسة العقاد لأبي نواس أنموذجا"

د. نبيل مزوار

جامعة حمه لخضر الوادي- الجزائر

ملخص المداخلة:

تتغي هذه المداخلة كشف النقاب عن بعض ما تعرضت له نصوصنا الإبداعية من توجيهات نقدية قسرية، باعثها؛ الافتنان بالمنهج الغربية، ومحاولة محاكاتها كيفما اتفق ، من قبل بعض رموز حركتنا النقدية في العصر الحديث ، ويعد العقاد بحق، أحد أبرز النقاد المحدثين إحساسا بأزمة النقد العربي يومئذ ،ومن أكثرهم مشاركة في تجديده، بتبنيه للمنهج النفسي، لكنه بلغ في تطبيقه أحيانا حد المغالاة، لاسيما دراسته لأبي نواس ، التي غرقت برأي بعض النقاد في مفاهيم علم النفس و مصطلحاته، وتحولت من فن السيرة، إلى ميدان علم النفس التطبيقي ، أما العقاد فلا يرى في تطبيقه هذا المنهج على الشاعر تعسفا، أو أنه لجأ إلى الحدس أو التخمين، إنما طبق دراسات علمية على آثار الشاعر وأخباره، فانطبقت عليها. ولنا أن نسأل هل أثر العقاد إرضاء المنهج على حساب النص؟ أم أن النص من الثراء ما جعله حمال أوجه ؟ وما هي مظاهر التجاوز ؟ وما هي ضوابط الانفتاح على المنهج ؟

Le résumé de cette intervention :

Cette intervention a révélé certains des actes créatifs d'orientation, de coercition, a été inspiré par d'autres de se tourner vers des approches occidentales ; et essayer d'imiter au hasard, par un mouvement dans des symboles monétaires modernes, Akkad a raison, un des sens le leader de la critique de la crise monétaire arabe qui jour et la plupart d'entre eux partage dans le rénové, construit par l'approche psychologique, mais plutôt surestimé dans parfois appliquée, surtout son étude de ABI Nawas, qui avait coulé quelques critiques ont vu dans les concepts et la terminologie de la psychologie, fait passer de L'art de la biographie, au domaine de la psychologie Akkad, a vu dans cette plateforme d'application ABI Nawas arbitrairement, soit qu'il fréquentait à l'intuition ou conjecture, appliquée mais appliqué des études scientifiques sur les effets du poète et dites-lui de que vous rencontrés. Nous demandons que vous, l'impact d'Akkad satisfaisiez curriculum au détriment du texte ? Ou que RTF fait éclater ? Quels sont les aspects de la transcendance ? Ce qui commande l'ouverture au programme d'études ?

لقد كان للشعور بالتخلف العربي أثره العميق في تغيير وجه الحياة العربية في العقد السادس من القرن العشرين، وهي تنظر بانهار وإكبار شديدين إلى مظاهر النهضة الشاملة، التي مست المجتمعات الغربية متوسلة في ذلك بالعلم والمنهج العلمي، ومن ثم انبرى نفر من أعلامنا: أدباء، ونقاد من أمثال: طه حسين، سلامة موسى، العقاد وصاحبيه شكري والمازني وسواهم ... لاسيما أصحاب البعثات العلمية، فقد تلقفوا هذه المناهج العلمية، والمقاربات المنهجية، واجتهدوا في إسقاطها على دراستنا الإنسانية عموماً والأدبية على نحو خاص، في مسعى يؤكد هيمنة فكرة اللحاق بالغرب المتقدم، فكان منهم من مال إلى المنهج الاجتماعي، والتف آخرون حول المنهج العلمي التجريبي، واستهوى المنهج الفني عدداً آخر من النقاد، في حين تحمس سواهم إلى المنهج النفسي. ومنذ ذلك الحين، شرع هؤلاء النقاد في توظيف نتائج البحوث العلمية في مجالات المعرفة المختلفة؛ خدمة للأدب ونقده، لاسيما أن التفكير الأدبي كما يرى الدكتور عز الدين إسماعيل، " ظل حتى مطلع القرن العشرين، تفكيراً انفعالياً أكثر منه علمياً"¹.

وتؤكد آثارنا الأدبية الأولى التي تلونت بتلك المناهج، أن الدكتور طه حسين من السباقين إلى تطبيق المناهج العلمية في دراسة الأدب ونقده، وقد لفت النظر يومئذ، إلى أن أزمة الأدب العربي في المنهج؛ ذلك أن المناهج التي درس بها كانت "عتيقة رديئة"، أضعفت صلته بالحياة².

وإذا كان من الطبيعي والمنطقي أن يتأثر الدكتور طه حسين بهذا التوجه الجديد في دراسة الأدب وقضياه؛ بفعل اتصاله المباشر بالمحاضن العلمية الغربية، فإنه من اللافت حقاً، أن يكون ذلك موضوع اهتمام العقاد، وهو من لا تربطه بتلك المدارس صلة، مع وفرة دراساته و جلاء تلك المناهج فيها، لاسيما المنهج النفسي فمثل هذا الأمر مما يحسب له، ويستدعي في آن معاً البحث في خلفيات ذلك الاهتمام، وطبيعة تلك الدراسات، وأثرها في آثارنا الأدبية، وهو سبب وجيه أيضاً في تقديري المتواضع لأن أعد هذه المداخلة، بالنظر لعنوان هذا الملتقى وما تفرع عنه من محاور. وأخص بالذكر المحور الثالث منه.

على أن النتائج الباهرة التي حققها العلم حينئذ، وانكشاف حظ الأدب والفن منها؛ أغوت العقاد وأغرته بمزيد الاتصال بالمنهج العلمي، واستشرف أعظم دور له في خدمة الأدب والفن، إذ يؤكد ذلك بقوله: " فإذا انتهت كشوف القرن العشرين في هذا الباب بالتمييز بين فوضى الفن وقواعده، فانعم به من ختام لا تنقضي حسناته، ومزاياه"³.

ثم إن الإجابات التي قدمها العلم لمسائل ظلت عالقة أزماناً مديدة مع قيام الحاجة الملحة إليها، من قبيل ما هو متعلق بالعواطف والنفسيات، فلا مناص بعد ذلك من اللجوء إلى العلم، الذي انجلت بعض حقائقه في تجارب عملية غير قابلة للرد، فلا غرو بعد ذلك أن يقرر العقاد وجوب تغير الأدب مع المتغيرات، وتسليح الميزان النقدي بالأدوات الضرورية، من خلال الانفتاح على غيره من المعارف والثقافات؛ " لتصحیح الحكم على حقيقة من حقائق المعرفة"⁴.

وتحمل وجهة النظر تلك العقاد على تقدير كل المدارس النقدية: لتفانيها في خدمة النص.

فقد ورد عنه قوله: " نُقدر المدرسة التاريخية، كما نُقدر المدرسة الاجتماعية، ونُقدر المدرسة الفنية، كما نُقدر معها المدرسة اللغوية، والبلاغية، وكل منها قد دل على شيء من قيم الأدب، لا نستغني عن الدلالة عليه"⁵. على أن طبيعة الموضوع الذي يروم تناوله هي التي تحدد مقدار تعامله معها.

وليس معنى حديثنا على انفتاح العقاد على عموم المناهج في دراساته كما أشرنا سلفاً، أنها سواء بالنسبة له ، إذ يلمس الدارس لمؤلفاته أن المنهج النفسي عنده لا يبلغ شأوه منهج^(*) ، وأن اشتغاله بالبحوث النفسية دراسة ، وتأليفاً ، بدأ في مرحلة مبكرة جداً من حياته الفكرية ، وقد دلت على ذلك أعماله الأدبية والنقدية مطلع العشرينيات فضلاً عما بعدها^(*)، حتى أن بعض الباحثين يُعدونه رائد الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث بلا منازع⁶.

ولا يجد العقاد حرجاً في الانحياز إلى المنهج النفسي ، وتقديمه عن غيره إذا ما خير في ذلك ، فقد قال صراحة : إذا كان لا مناص من تفضيل مدرسة محددة، فمدرسة (النقد السيكلوجي) أو النفساني أولى بالتفضيل : " لأنها المدرسة التي نستغني بها عن غيرها، ولا نفقد شيئاً من جوهر الفن أو الفنان المنقود، فهي تحيط بالمدارس الأخرى كلها في جميع مزاياها، وأي مدرسة تقوم مقامها"⁷. بل إنه ليقدم الدراسة النفسية أحياناً على الدراسة الأدبية، حتى قال : في ترجمته لجميل بن معمر "وقد عنانا في هذا الكتاب أن نفهم الأدب على مصباح من علم النفس ، ومن حقائق الطبيعة، فلا نرجع به إلى لفظ تلوكه الأفواه، بل نرجع به إلى وشائج تتمزج بالأبدان والأذهان"⁸.

إن فرط حماس العقاد للدراسة النفسية؛ هو الذي جعله ينظر إلى التقييم الأدبي لهذه الترجمة على أنها لا تعدو أن تكون مجرد حديث، أولغو بالنظر لما هو عاكف عليه .

وببلغ تعصب العقاد له حداً، لا يقبل معه جهل المنهج فضلاً عن تجاهله؛ لأن ذلك لو حدث قبل هذا العصر لكان ذلك ممكناً⁹؛ لأن العصر هو عصر الدراسات النفسية، "وهي اليوم مرجع الاختبارات في كل مجال .

ومع حماس العقاد الشديد لنتائج دراسة الأدب بهذا المنهج، إلا أن بعض النقاد لم ترضهم نتائج تلك البحوث فأخذوا منها مواقف مختلفة، لاسيما دراسته لأبي نواس؛ لأنه أحال الكتاب برأيهم إلى دراسة في النرجسية التي تحدث عنها (هافيلوك أليس)، أكثر مما هو دراسة لأبي نواس¹⁰. كما أن رد الإبداع الفني عمومًا إلى مجموعة من الآراء النفسية، والعقد: كالنرجسية، وعقدة أوديب وسواها، تفسد النص وتجعل من مثل هذا التحليل تكراراً مملاً¹¹. ومما لاحظته الدكتور طه حسين، حينما صدر كتاب العقاد حول أبي نواس، أن مؤلفه لم يبتعد عن مذاهب الأدباء في حديث النرجسية، ولكنه غلا غلوا شديداً في تعمقها على مذهب المحللين النفسيين¹².

ولا يجد العقاد مسوغاً لتحفظ النقاد عن تطبيقاته، فضلاً عن معارضتها، بقوله : "إننا لم نخترع أعراض النرجسية، ولم نبتدع وصف هذه الآفة في كتب الدراسات النفسية، ولكنها أوصاف موجودة، مقررة في مواضعها، عرضناها على سيرة أبي نواس فانطبقت عليها، ولم نزد من عندنا شيئاً على السيرة، ولا شيئاً عن أعراض النرجسية، فلا مناص من فهم أبي نواس على هذه الصفة¹³."

ولا يقبل العقاد وهو يوجه كلامه إلى الدكتور طه وسواه أن يقول قائل عن عمله، هذا صواب، وهذا خطأ دون إطلاع، "وإنما يحق ذلك لمن اطلع وتوسع في الاطلاع، فهو يخالف وصفنا لأبي نواس، ويذكر أسباب المخالفة، معتمداً على مراجعها. ومن تفضل بهذا التصحيح، فنحن لتصحيحه منتظرون، وكل شرطنا، بل شرط البحث عليه، أن يستند إلى دليل معلوم"¹⁴.

أما رده على منتقديه كيفما كانت مستوياتهم ومكانتهم، فإن خلا من العنف اللفظي، فلا يسلم من التهكم والسخرية، ومن ذلك: رده على الدكتور مندور في معرض حديثه عن الطبيعة الفنية للمبدع^(*) بقوله: "أما أن نفس الشاعر أو الأديب تدل عليه وعلى

مجتمعه، فذلك هو المستوى المعقول، ولا منحدر عنه لمن يحمل رأساً آدمياً فوق قدمين اثنتين"¹⁵. ومثل هذه العبارات ترسم حداً بيناً بينه وبين من لا يرضى منهجه .

وقد حظيت دراسة المقومات النفسية في الآثار الأدبية عموماً والتراجع على نحو خاص بنصيب الأسد من عناية العقاد، حتى أخذ عليه ذلك، بتحويله البحوث الأدبية إلى وثائق نفسية، أما العقاد فيراها حتمية؛ لاتصال الحالة النفسية للمبدع بالعملية الإبداعية؛ من خلال تسامي هذا الأخير بالعمل الفني عن ما يواجهه من معيقات وهو ما يفسر حسب العقاد اتخاذ علماء النفس النصوص الأدبية كمدونة تطبيقية لمفاهيمهم النظرية، يقدمون من خلالها قراءة لهذا الإبداع على أساس هذه العلل، بلغة رمزية مشحونة بالدلالات .

ولأنّ قسماً من هذه العلل والسمات انطبقت على بعض شخصيات العقاد، وتجلت بعض مظاهرها في قسم من آثارها الأدبية، فقد راح يؤكد تلبسهم بها من طرق مختلفة، دون أن يغفل أعراضها ودواعيها. ويأتي في مقدمة هذه الشخصيات على الإطلاق: "أبو نواس" حتى أنه أشار في عنوان الكتاب إلى موضوع الدراسة، فجاء موسوماً بـ "أبو نواس الحسن بن هانئ دراسة في التحليل النفسي والنقد التاريخي".

إن كثرة العلل التي ابتلي بها أبو نواس وفقاً لتشخيص العقاد، جعله لا يكتفي بالتنبيه إليها في بضعة أسطر أو صفحات، كما هي عادته في دراساته لبعض شخصياته، بل خصص له كتاباً مستقلاً وبحثاً مستفيضاً، على أن استرساله في شرح بعض المفاهيم النفسية الواردة في الكتاب، بتحديد أصولها، وتعدد أنواعها وعناصرها، جعل فكرة تصنيف الكتاب بين كتب الأدب والنقد ملتبسة إن لم نقل موضوع تحفظ.

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا، إلى أن الأصل في بحث علل الأعلام أن تدرس الشخصيات أولاً، وعند اكتشاف ما ابتليت به، يحدد إطارها لتكون موضوع الدراسة، إلا أن فرط استغراق العقاد في شرح العلل تفصيل القول فيها غلب عند بعض دارسي كتابه حول أبي نواس فرضية أنه بحث العلل أولاً ثم بحث لها عن شخصية تناسبها. والحق إن هذا الرأي لا يستند إلى غلو العقاد في البحث فحسب، بل لما يفهم من قول العقاد: إنه أصلح نموذج في الأدب العربي للدراسات النفسية، وتطبيق آراء النفسانيين المحدثين على الأمزجة والأخلاق.¹⁶

وسواء أبحث العقاد العلل أولاً أم بحث الشاعر ثم بحثها، فإنه يسلك الشاعر في زمرة النرجسيين، بدليل انطباق لوازمها عليه في "خلائقه الأولية وخلائقه التبعية"، وتفسير جميع أحواله لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ الجنسي.¹⁷

وأياً ما كان الأمر فإن ما نتأمله من مثل هكذا دراسة، أن تجيبنا عن السؤال الأهم: هل هذه النرجسية هي التي جعلت أبا نواس فنانياً؟ أم أن إبداعه وفنه جعلاه نرجسياً؟

1- النرجسية:

علة من العلل النفسية ترسم حدوداً بين الشخصية و من حولها، على نحو يتقدم فيه الأنا أبداً عن الآخر، وإطلاق هذا اللفظ مرتبط بالأسطورة اليونانية القديمة، ودلالاته مستوحاة من سلوك شاب وسيم من شباب اليونان.¹⁸ ويعرفها علماء النفس بعشق الذات والتمركز حولها، أو هي "استمرار مرحلة باكورة من مراحل النمو الجنسي تبقى فيها الذات موضوع العشق"¹⁹.

انطلق العقد في دراسته لهذه العلة عند أبي نواس من قناعة قامت على عملية مسح ، انتهى من خلالها إلى أن أعراض النرجسية لا تنطبق على علم من الأعلام كما تنطبق عليه ، فشرع في بحث آثارها ودواعيها عنده ، وقد خلص إلى أن هذه الآفة التي هيمنت على هذه الشخصية الميزة^(**) تفسر شذوذ الشاعر وصور تناقضه واضطرابه²⁰ . بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ عدها مفتاح هذه الشخصية ليس لها غيره في الدلالة عليها والنفاذ لكشف أغوارها وتفسير أسرارها .

وتحمل مظنة التباس المعنيين العقد على إقامة الحدود الفاصلة بينهما، من خلال كشف وجوه التباين؛ لأن النرجسية المادية شيء، و المعنوية شيء آخر ، ففتنة النرجسي بجسده غير فتنته بذاته التي توجي إليه الإحساس بالعظمة.

فالنرجسية الجسدية كما تشير البحوث النفسية، تتجاوز التعلق بالجسد إلى الهيام به ، أي تصوره معشوقا مشتى، فيشبع بذلك رغبته الجنسية في جسده، ولا ينتهي هؤلاء عن تأمل أجسادهم؛ " حتى تتم الصلة بينهم وبين ذلك المعشوق مراضاة لهواهم السقيم"²¹.

أما فتنة العظمة فعلى خلاف ذلك تماما، إذ لا ارتباط لها بالجسد إلا أن يكون مغذيا للذات، من خلال الإحساس بالقوة و التفوق، فالمراد إذا من النرجسية المعنوية، هو "توسيع الذات وبسطها على ما حولها ومن حولها، حتى تصبح الأنانية هنا متعلقة بعظام الأعمال"²².

ويحتم الجانب المنهجي على العقد أن يتخير من شعب النرجسية شعبتين، لما لهما من علاقة بحالته النفسية؛ لأن شعبيها من الكثرة والتنوع بمكان، ومثل هذا يضيق به العمل وربما كان بعضه مناقضا له

وأولى الشعبتين: الاشتهاؤ الذاتي (Auto-Erotism)²³، أما الثانية فهي التوثين الذاتي (Auto-Fetishism)²⁴، وتمايز الشعبتان بخصائصهما لا ينفي تداخلهما كما يشير العقد؛ لأن أعراض كل منهما قد تنساب إلى الأخرى، وهذا بقدر ما يشير إلى عمق هذه البحوث يشير بالمقابل إلى تعمق العقد فيها .

على أن للاشتهاؤ والتوثين الذاتيين لوازم متفاوتة في درجة الالتصاق ودواعيه، بالآفة وتوابعها.

ويذكر العقد أبرز ثلاثة لوازم وأقواها منها: لازمة التلبيس أو التشخيص (Identification)²⁵ ومنها لازمة العرض (Exhibitionism)²⁶، ولازمة الارتداد (Régession)²⁷.

ولم يزد استعراض العقد لهذه اللوازم وقد أورد صورها إلا اقتناعا، وبقينا بانطباقها على نفسية أبي نواس في جميع خلائقه، وقدرتها على تفسير "جميع أحواله ، حيث لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ في المسائل الجنسية"²⁸.

لازمة التلبيس:

وليثبت العقد تلبس أبي نواس بلازمة التلبيس، أخذ ينقب في شعره، فوقع على غزله في غلام ألثغ فاستدل به على أن سبب تعلقه به هو ما جمعهما من عيب لساني ، وإن لم يكن واحدا ، فلثغة أبي نواس بالراء، ولثغة الغلام بالسين، وهذا يعني أن الانطباق لن يكون تاما، ومع علم العقد أن تغير النتائج يفضي إلى تغير المقدمات، إلا أنه أثر إرضاء المنهج ولو على حساب النص.

ومما قاله فيه:

بِأَبِي أَلْتَعَّ لَاجِجَتُهُ فَقَالَ فِي غُنْجٍ وَخُنَاتٍ

لَمَّا رَأَى مَيِّ خِلَافِي لَهُ كَمْ لَقِيَ النَّاتُ مِنَ النَّاتِ²⁹

وفي غلام آخر ولعله أعجبي أو به علة لسانية أعجبه منه تكسيره للراء فقال فيه:

يُكْسِرُ الرَّاءَ وَتَكْسِيرُهَا يَدْعُو مَعَ السُّقْمِ إِلَى الْحَتْفِ³⁰

وأبدى إعجابا بالبحّة التي كانت من خواص صوته، فقال في وصف صاحبها:

وَبِهِ غَنَّةُ الصِّبَا تَغْتَلِيهَا بُحَّةُ الْاِخْتِلَامِ لِلتَّشْرِيفِ³¹

ولا يرى الدكتور العربي درويش في لثغة أبي نواس أو في اهتمامه بها، دليلا على ظاهرة التلبيس مطلقا، وهو مصيب في ذلك؛ لأن الشعراء كثيرا ما أعجبوا باللثغة، وأحبوا البحّة كنغمة موسيقية

لاسيما وأنهم من أرهف الناس حسا، وأرقاهم حاسة موسيقية، لكن ولع العقاد الشديد بتطبيق آراء النفسيين المحدثين هو الذي جنى عليه، وجعله يتخذ من العلامات أدلة كما يقال، وأما الإعجاب بالبحّة واللثغة فلا يندر بين الناس، ولأدل على ذلك ببعض الأصوات الشجية لطائفة من المغنين رجالا ونساء فضلا عن القراء، ولم نسمع بتعلقه بأحدهم لهذا الباعث، ثم إذا صح فرض العقاد أن اللثغة هي محرك غزله فيهم، فكيف نفسر غزله فيمن سواهم؟ والمصادر الأدبية تحدثنا عن مئات الأبيات .

كما وظف العقاد هذه اللازمة لإثبات علاقة أبي نواس بالنساء، وكلفه بهن أحيانا، رغم أن القسم الأوفى من غزله كان في الغلمان، مما قوى اعتقاد بعض الباحثين بشذوذه ، ونزوعه الأثم لبني جنسه ومن ثم انصرافه عن النساء، لاسيما وأن سماته البدنية و النفسية تقوي هذا الظن، " فقد كان رقيقا ناعما؛ وإنما كان مرجع التوق عنده إلى اضطراب نفسي وهاجس مزاجي"³².

ويحاول العقاد أن يبدد هذا الوهم من خلال الإشارة إلى علاقته بجنان، متوسلا في ذلك لا بسيرة أبي نواس فحسب، بل وبغزلياته فيها أيضا ، غير أن لازمة العرض عنده هي الباعث الأساسي على قيامها، إذ كان فيها من السمات الجسدية والنفسية ما جعلها تنزع إلى الجنسين مثله، معززا رأيه بما أورده ابن منظور في أخبار الشاعر، "أن جنانا كانت تحب النساء وتميل إليهن"³³.

وحرص العقاد على إبراز شهادة ابن منظور في جنان، من خلال كشفه عن المصدر على عادة لم يجر عليها العقاد، باعته تقوية رأيه في الإشارة إلى مكانتها عند أبي نواس ، من طريق الشذوذ أو الفطرة³⁴.

ويسوق العقاد الدليل تلو الآخر، على أن للنساء نصيب في قلب أبي نواس، بالإشارة إلى علاقته بالجارية حسن، فقد كان ولعا بها أشد الولع كما يرى العقاد، تشهد على ذلك أشعاره حيث قال:

إِنَّ لِي حُرْمَةً فَلَوْ رُعِيَتْ لِي لَا جَوَازَ وَلَا أَقُولُ قَرَابَةَ

غَيْرَ أَنِّي سَعَى وَجْهِكَ لَمْ أُحِرْ مِنْهُ فِي اللَّفْظِ وَالْهَجَا وَالْكِتَابَةِ

فَإِذَا دُعِيْتُ غَيْرَ مَكْتَى لَمْ أَقْصِرْ حِفْظًا لَهُ فِي الْإِجَابَةِ

ويتخذ العقد من المجانسة في الأسماء جسرا يصل قلب الجارية حُسن بأبي نواس للضرورة نفسها وأن ذلك إنما كان لاستيحائه من اسمه واسمها معنى التوحد، فيكون ذلك مناسبة لتدفق المشاعر الأحاسيس وتتوق النفوس" إذ تسلس المشابهة عنده عملية التليس والتشخيص³⁶.

ويبدو لي أن رغبة العقد الملحة في إثبات هذه اللازمة، هو الذي حمله على تفسير علاقته بجنان بالشذوذ، وعلاقته بحسن بباعث المشابهة في الأسماء لتأكيد هذا الحب، وإذا كان الأمر كذلك فبماذا نفسر هيامه بدنانير، وعنان، و عريب وسواهن، ولا مشابهة في الأسماء؟ ولا شذوذ؟ وليست الأبيات الغزلية فمن قليلة وقد قلب ديوانه في معرض بحثه عن الأدلة ولا بد أنه التقاها.

لازمة العرض:

وإذا كان العقد لا يعتريه شك في انطباق لوازم النرجسية على أبي نواس، فإنه بالمقابل لا يميز اعتقاده شيء في أن أشد تلك اللوازم التصاقا به وانطباقا عليه هي لازمة العرض، وأصالتها فيه تؤكد آثاره وأخباره،؛ نظرا لميله الجارف للمجاهرة، " إذ لم ينظم شعرا في الخمريات أو الغزل أو المجون إلا تبين منه أن الجهر بالمحرمات أدنى إلى هواه من المتعة بالمحرمات"³⁷.

فأبو نواس كما يرى العقد من ذلكم النفر الذين لا تطيب لهم اللذات المعزولة، ولا تثيرهم المتع المفيدة أيًا ما كان القيد، وحينئذ يمنحهم فك القيد، أو الانقلاب عليه، متعة إضافية إلى جانب المتعة الأصلية، ويستشهد العقد بقول أبي نواس في ذلك:

وإن قالوا حرامٌ قل حرامٌ وَلَكِنَّ اللَّذَاذَةَ فِي الْحَرَامِ³⁸

و خليف بنا أن ننبه هنا إلى أن فكرة انطباق لازمة العرض على أبي نواس بداعي مجاهرته بالخلاعة لا يمكن القبول بها على نحو مطلق؛ لأن عددا غير قليل من الأدباء والفنانين "مولعين بمثل هذه المجاهرة، ومع ذلك لا يذكرون في عداد النرجسين."³⁹

ويصرف كثير من النقاد الجهر بالمحرمات عند أبي نواس إلى غير ما أوله العقد، لاسيما إذا ارتبط بالفنان؛ لأنه في الغالب لا يقيم وزنا لتقاليد عصره؛ لأنها تدابر حريته، وربما قصد بجهره باللذات "طلب المزيد منها، أو أن يعرف بها فلا يضيق عليه فيها؛ لأنه لا يستعري اهتمام الآخرين لاشتهاره بها"⁴⁰.

كما يمكن أن يكون باعث المجاهرة: التهلك، والتحلل الخلقي، الذي شاع في عصره فإذا كان المنحرفون من العامة يغرونه بالارتكاس في الانحراف، فإن زيف الخاصة، وتظاهروهم بالصالح أو دعوتهم للإصلاح، يستفزهم ويزيد من تعنته فينشط للمجاهرة لأن فريقا منهم "كانوا يقتربون أبشع الموبقات، ويتظاهرون أنهم حماة الأخلاق والشرائع، فيسخر منهم أبو نواس ويتحدى رياءهم ونفاقهم"⁴¹.

ولسنا نحتاج إلى مزيد من القول لنبين، أن صرف العقد لسلوك أبي نواس بالعرض أو المجاهرة، باعته إلحاح المنهج وضغط مقدماته عليه. وينبه العقد في سياق حديثه عن التذاذ أبي نواس بالمجاهرة، بأن هناك مستوى أعلى من اللذة يتحقق لأمثاله بالمخالفة والمعاندة، " فلا يتساوى شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤها بمال حرام"⁴²، ثم ذكر أبياتا له تشير إلى تفننه في عرض ما ارتكب من محرمات:

وَأَرْكَبُ الْأَثَامَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ الْأَنَامَا

فَلَكُمْ نِلْنَا بِدِينَا رَقَمَرِنَاهُ غُلَامَا

وَشَرِبْنَا يَوْمَنَا ذَا لَكَ بِبَاقِيهِ مُدَامَا

لَا نَصْرِفُ فِي حَرَامٍ أَبَدًا إِلَّا حَرَامَا⁴³

والحق إن من يقارن أبيات أبي نواس هذه بأبيات نظرائه في عصره على الأقل، لا يجد كبير فرق في تحليلهم من الحشمة والحياء، ونزوعهم الآثم للمحرم والممنوع، ولأدل على ذلك من بشار بن برد الذي بلغ من المجاهرة بالفواحش وإغراء الناس بها، ما جعله غريم للعلماء ومطلوبا من الخلفاء .

ولا يكتفي العقاد بالإشارة إلى استمتاع النرجسي بالمحرم والممنوع في إشارة لأبي نواس، بل يذهب إلى أبعد من ذلك إلى الحد أنه ينفي عن هذه الشخصية النية أو الرغبة في إبطال المحرمات، "بل يلوح من كل أعمالها وأقوالها أنها نقيض ذلك تريد أن تستبقي شيئا محرما لتستبيحه وأمرًا ملزما لتنعم بعصيانه"⁴⁴.

وإذا كنا نتفق مع العقاد في استمتاع أبي نواس بالمحرم والممنوع بما حشد من شواهد وأدلة، إلا أن نفيه لنيته أو رغبته في إبطال المحرمات تعوزه الأدلة التي تجعل كلامه ليس مجرد افتراض، إن لم نقل افتراء .

وفي تشبيهه العقاد سلوك النرجسي الذي يثيره المنع بسلوك الطفل المدلل، "الذي يكلف أهله ما لا يوجد وبأبى ما هو موجود"⁴⁵. فيه من الإشارة المبطنية إلى أصالة النرجسية عند أبي نواس؛ لأنه كان وحيد أمه فنال من الدلال ما نال. وإن كان هذا سلوك الأطفال جميعا في سنهم الأولى (المرحلة الخضراء) لكنه لا يلبث أن يزول مع تشكل الشخصية ، فإن هم عادوا إلى هذا السلوك في سن النضج مثل ذلك شكلا من أشكال النكوص^(*)، أو الحنين إلى الطفولة المحرومة.

ومن أمثلة التحدي بالمخالفة كصورة من صور تغلل لازمة العرض فيه، أن أبا نواس جعل الصلاح تهديدا لإبليس في قصيدة له يشكو فيه من هجر حبيبه فقال:

إِنْ أَنْتَ لَمْ تُلْقِ لِي الْمَوَدَّةَ فِي قَلْبِ حَبِيبِي وَأَنْتَ مُقْتَدِرٌ

لَا قُلْتُ شِعْرًا وَلَا سَمِعْتُ غِنًا وَلَا جَرَى فِي مَفَاصِلِي السَّكْرِ

وَلَا أَزَالُ الْقُرْآنُ أَدْرُسُهُ أَرْوَحُ فِي دَرْسِهِ وَأَبْتَكِرُ

وَأَلْزَمُ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ وَلَا أَزَالُ دَهْرِي بِالْخَيْرِ أَتَمِرُ

فَمَا مَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ثَالِثَةٌ حَتَّى أَتَانِي الْحَبِيبُ يَعْتَدِرُ⁴⁶

ولا يجد العقاد اختلافا في سلوك أبي نواس مع إبليس والناس ولعل الفرق الوحيد أنه يتحداهم بالمعصية والفسوق، ويتحدى إبليس بالصلاح والعفاف، وإذا جرى بينهما حوار عن معصية يدفعه إليها كما ورد في بعض قصائده ، فعدم استجابته في الغالب إنما هو "من قبيل المكيدة والمعاندة لا من قبيل الزهد والعفاف"⁴⁷.

وفي كشف العقاد لتجليات هذه اللازمة في إبليسيات أبي نواس، إجلال لمكانته عند إبليس لمفاخرته بها في مواضع من شعره، وكيف لا حل محلا حسنا من قلبه حتى شرفه بإنفاق شعره بين الجن والإنس والأكثر من ذلك أنه كفل له وجاهة التميز بالخمرة "التي هو كفؤ لها دون عداله، فهو يخصه بها ويصرف عداله عنها"⁴⁸ استجابة لدعوته وفي ذلك يقول:

دَعَوْتُ إِبْلِيسَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَا تَسْقِ هَذَا الشَّرَابَ عُدَّالِي⁴⁹

وقوله أيضا:

وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأَكْفَاءِهَا⁵⁰

ولعله من الغريب حقا أن يمتد تطبيق العقاد للوازم النرجسية على إبليسيات أبي نواس وهي محض أعمال فنية، لا تكشف بالضرورة عن اعتقاد الشاعر أو قناعته، ولا يمكن بحال مقارنتها ببعض غزلياته، أو خمرياته التي تحتفظ بجانب من سيرته. ولكن حاجة العقاد إلى الأدلة جعلته أكثر تساهل فيما ينبغي تقديمه و الوثوق به .

وفي سياق بحث العقاد عن تطبيقات لوازم النرجسية عند أبي نواس، بدا له أن ولع الشاعر الشديد بالخمرة إنما تحركه شهوة الوجاهة والظهور، لما تملؤه به من الشعور بالعظمة والسلطان، والاختصاص بالخمرة، لامتناع أن تكون الخمرة حسبه في تناول كل طالب، إذ يحدد في كثير من خمرياته إلى درجة المبالغة أحيانا، مواصفات من يختصون بصلتها⁵¹.

و أميل إلى الاعتقاد أن زعم العقاد في تعلق أبي نواس بالخمرة يحركه حب الوجاهة والظهور أمر فيه شيء من المبالغة؛ لأن ولعه بها بدأ قبل استشراف المكانة الاجتماعية والمنزلة الأدبية، لأنها كانت الملاذ الوحيد للشاعر في مواجهة الأزمات. وتسكين الأوجاع والاضطرابات.

وإذا كان العقاد قد أثبت لأبي نواس ما جعله موصوفا . عنده على الأقل . بالنرجسية وما ترتب عنها من لوازم، فإنه بالمقابل يوشك من خلال تطبيق هذا المنهج أن يبرئ أبا نواس من بعض ما رمي به، فقد برأه من الزندقة وعد ذلك لغوا في حقه، وأنها في واقع الأمر ليست "إلا آفة من آفات العبث بالمخالفة ولا شيء سواها"⁵²، كما نفى عنه الشعوبية الغالية التي تفشت في عصره، ناظرا إليها على أنها لون من ألوان اللهو الذي يريد الشاعر به لفت الانتباه إليه، وتحقيق المخالفة التي ترضيه وبالمقابل حمل إفراط أبي نواس في الغزل بالذكر على أنه من التقية المقصودة ، التي يخفي من خلالها خيبته في استمالة قلوب النساء، فيتظاهر بزهده فحين رغم ولعه الشديد بهن وما تقديم الغلمان عليهن إلا صورة من صور تلك المدارة، على أنه لا ينبغي أن يفهم من حديثنا هذا أننا مع إلقاء التهم عليه أو أننا نحول دون تبرئته منها لكن بالمقابل ليس من المعقول في شيء أن يؤدي الخضوع للمنهج إلى انحراف في حقيقة الشخصية وطبيعتها .

ولذلك لم يكن مستغربا أبدا أن ينظر فريق من النقاد المعاصرين للعقاد، وكذا بعض المتأخرين عنه بشيء من التحفظ للمقاربة التي توخاها، رغم انفتاحهم على المناهج الغربية، وتعلمد بعضهم على أساتذتها، يقودهم لذلك الموقف المتطرف أحيانا معانيتهم

لنتائج عدد من دراساته، لما لمسوا ما تعرضت له بعض نصوصه من قهر أو توجيه قسري حتى تستجيب لقواعد المنهج أو شرط النظرية على ما بين الثقافتين من اختلاف.

وأميل إلى الاعتقاد أن ميل العقاد لإيجاد تفسير جامع لسلوك أبي نواس وتفكيره، هو الذي حمله على اختيار آفة النرجسية، ودفعه في كل مرة إلى طرح أي تفسير جزئي آخر لا يتفق مع هذا الطرح، فهي كفيلة في رأيه بتفسير أخباره وآثاره وعاداته ومعتقداته وحركاته وسكناته المنسجم منها والمتناقض.

الهوامش:

¹ عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط 4، مكتبة غريب، القاهرة، (د.ت)، ص 14.

- ² انظر، المرجع نفسه، ص 14.
- ³ عباس العقاد، القرن العشرون ما كان وما سيكون، مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (د.ت). ص 227.
- ⁴ المرجع نفسه، ص 917، 918.
- ⁵ عباس العقاد، يوميات، ط2، دار المعارف القاهرة، 1969، ج 2، ص 410.
- (*) عرف النقد النفسي القائم على الملاحظة النفسية منذ القدم، ولكن هذه الدراسات لم تأخذ صورتها العلمية الكاملة إلا بعد ظهور نتائج دراسات فرويديين للغة والباطن، وكذلك بعد أن أفاض أتباع يونغ في الحديث عن الأسطورة والرمز، وفي مرحلة تالية بعد ما تقررت نتائج الجشثاليين حول تجربة الحواس. انظر، أحمد كمال زكي، النقد الأدبي العربي الحديث أصوله واتجاهاته، ص201. وانظر، شوقي ضيف، البحث الأدبي، طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص115، 116.
- (*) ومن ذلك مفهومه للشعر الذي أورده في مقدمة ديوان المازني سنة 1913، وبحث آخر حول الموسيقى وأثرها النفسي.
- ⁶ انظر، عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، ط 1، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص 131.
- ⁷ المرجع نفسه، ص 410.
- ⁸ عباس العقاد، يوميات، ج 2، ص 410.
- ⁹ سيد قطب، النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ط6، دار الشروق عمان، 2006، ص 215.
- ¹⁰ صلاح عبد الصبور، ماذا يبقى منهم للتاريخ، د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة، 1968، ص 61.
- ¹¹ شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ط8، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 54.
- ¹² انظر، المرجع السابق، ص 68.
- ¹³ عباس العقاد، يوميات، ج 2، ص 297.
- ¹⁴ المرجع السابق، ص 297.
- القاهرة، (د.ت).
- ¹⁵ عباس العقاد، يوميات، ج 2، ص 410.
- ¹⁶ انظر، عباس العقاد، يوميات، ج 2
- ¹⁷ عباس العقاد، أبو نواس، ط2، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 1994، ص34
- *تروي هذه الأسطورة حكاية فتى جميل يدعى نرجس، كان مفتونا بجماله، وحدث أن ذهب يوما يشرب من ينبوع صاف، فتراعت له صورته على صفحة الماء، فأطرق يتأملها حتى هام بها، ولم يزد النظر إليها إلا ذهولا وذهولا حتى فني فنبئت نرجسة في مكانه وسلكت سلوكه.
- ¹⁹ فاخر عقل، معجم علم النفس، ص 73. وانظر، رزوق أسعد، موسوعة علم النفس، (د.ط)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977، ص 308
- (**) ويخالف النويهي العقاد في تفسير شذوذ أبي نواس بالترجسية، إذ يرده إلى عقدة أوديب زاعما أن غيرة الشاعر "الجنسية على أمه ونزوعه الفاسق إليها نزوعا لم يستطع التغلب عليه والتخلص منه، وهذا النزوع أعجزه عن تحقيق اللذة المعهودة مع النساء وانحرف به إلى الغلمان". محمد النويهي، نفسية أبي نواس، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970، ص 129.
- ²⁰ انظر، عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 34.
- ²¹ عباس العقاد، يوميات، ج 1، ص 301، 302.
- ²² المرجع السابق، ص 301، 302.
- ²³ الاستثناء الذاتي: وهو فعالية جنسية مصدرها الذات ومتجهة نحو الذات تصف الحياة الجنسية للأطفال وبعض العصائيين. انظر، فاخر عقل معجم علم النفس، ص 18.

- ²⁴ التوثيق الذاتي حالة مرضية تتصف بالتعلق الجنسي بأجزاء معينة من الجسم أو بملابس خاصة بالمحبيب وتنتهي عادة بالرضى الجنسي. انظر، المرجع نفسه، ص 44.
- ²⁵ لازمة التلبس أو التشخيص Identification وهو "عملية عقلية تعبر عن ذاتها على شكل صلة انفعالية بأشخاص آخرين أو أوضاع أخرى، بحيث يتصرف الفرد وكأنه الشخص الآخر المتصل به". انظر، فاخر عقل، معجم علم النفس، ص 55.
- ²⁶ لازمة العرض Exhibitionism "نزعة نفسية تكون عادة إلحاحية لإظهار جزء من الجسد يستر عادة وبخاصة أعضاء التناسل وذلك من أجل التهييج الجنسي". انظر، المرجع نفسه، ص 41.
- ²⁷ ولازمة الارتداد Regression هو "الرجوع إلى صيغة استجابة كانت تستعمل في المراحل المبكرة من العمر وهي في المعتاد أقل مناسبة". انظر، المرجع نفسه، ص 97.
- ²⁸ عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 39. انظر، العربي حسن درويش، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر، (د.ط)، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1987، ص 358.
- ²⁹ انظر، المرجع نفسه، ص 40. وانظر، الديوان، ج 1، ص 219.
- ³⁰ انظر، المرجع السابق، ص 40. وانظر، الديوان، ج 2، ص 124.
- ³¹ انظر، المرجع نفسه، ص 40. وانظر، الديوان، ج 2، ص 129.
- ³² عبد العزيز جسوس، خطاب علم النفس في النقد الأدبي العربي الحديث، ط1، المطبعة الوطنية، مراكش، 2006، ص 132.
- ³³ عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 41.
- ³⁴ انظر، المرجع نفسه، ص 41.
- ³⁵ انظر، المرجع السابق، ص 41. وانظر، الديوان، ج 1، ص 106.
- ³⁶ انظر، المرجع نفسه، ص 41.
- ³⁷ عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 42.
- ³⁸ انظر، عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 42. وانظر، الديوان، ج 2، ص 341.
- ³⁹ انظر، العربي حسن درويش، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر، ص 372.
- ⁴⁰ أحمد حيدوش، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص 125.
- ⁴¹ حسين مروة، دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي، (د.ط)، مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ص 248.
- ⁴² عباس العقاد، أبو نواس، مج 16، ص 42.
- ⁴³ انظر، المرجع نفسه، ص 42. وانظر، الديوان، ج 2، ص 345.
- ⁴⁴ المرجع السابق، ص 49.
- ⁴⁵ المرجع نفسه، ص 49.
- ^(*) النكوص: إرتداد الفرد إلى مرحلة سابقة بدلا من الاحتفاظ أو التقدم بموقفه. انظر، عز الدين الأشول، سيكولوجية الشخصية، (د.ط)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978، ص 65.
- ⁴⁶ انظر، المرجع السابق، ص 42. وانظر، الديوان، ج 1، ص 469.
- ⁴⁷ المرجع نفسه، ص 45.
- ⁴⁸ انظر، المرجع السابق، ص 46.
- ⁴⁹ انظر، المرجع نفسه، ص 46. وانظر، الديوان، ج 1، ص 238.
- ⁵⁰ انظر، المرجع نفسه، ص 46. وانظر، الديوان، ج 1، ص 23.
- ⁵¹ انظر، المرجع نفسه، ص 46.
- ⁵² انظر، عباس العقاد، أبو نواس، مج 2، ص 42.